الزواج والأسرة

بقلم حضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

الأسرة كلمة طيبة ، صغيرة فى مبناها . كبيرة فى معناها ، بل إنها لتتبوأ من الخطورة ذروتها ، وتتسنم قمتها ، وتقتعد غاربها ، فالأسرة هى الأمة بأسرها بل لا أكون متجنيا على الحق إذا قلت إنها العالم كله .

ومنشأ الأسرة الزواج . وقد قضت حكمة الحكيم جل شأنه أن تكون تلك الرابطة المقدسة هى التى تصل الناس بعضهم ببعض ، على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وتوثق بينهم عرى التعارف والتآلف ، والتضامن والتحالف ، وتوفق بين قلوبهم مودة ورحمة . ولعظم قدر الزواج وخطورة شأنه اختصه الله برعايته القدسية ، فأنزل فى محكم كتابه آيات بينات فصلت الأحكام لإحكام أواصر الود وتوثيق عرى الألفة بين العائلات ، وبينت الحلال والحرام ، ورسمت طريق الوئام إذا ما دب دبيب الخصام . كل ذلك ليعيش الناس عيشة راضية مرضية . ولقد فطن أولو الحجا والنهى إلى حكمة هذه الأحكام فاتبعوها مخلصين وخيمت السعادة على بيوتهم وآتاهم الله من فضله وكانوا من المهتدين .

وأما الذين خرجوا عليها واستباحوا لأنفسهم ما فيها من رخص وفسروها على ما تهوى نفوسهم وهى أمارة بالسوء ، فأولئك هم الفاسقون الضالون الذين يجب أن يتدخل أولو الأمر فى شؤونهم ليحولوا بينهم وبين ما يفعلون .

فانى لا أفهم كيف يباح للمُتْرِبِين المدقعين المعدمين — وهم عالة على غيرهم — أن يتزوجوا ليعولوا زوجات وأولادا يتطلبون من النفقات ما لا يملكون منه شيئا . ألا يترتب على هذا الزواج أن يلجأ الزوج إلى الكسب من طريق غير مشروع أو أن تبيع الزوجة عفافها بعلم زوجها أو بغير علمه اشفاقا على نفسها وأولادها من الجوع والعرى ، أو أن يدفع الزوج والزوجة بأولادهما إلى طريق الاجرام كالتسول والنشل والسرقة ؟ أليس فى هذه الإباحة خلق للشقاء والبؤس والتعاسة ؟ ألم تكفنا هذه الجموع الغفيرة من الأحداث المشردين الذين يبيتون على الطوى ويتوسدون أفاريز الشوارع والذين سيصبحون يوما من كبار المجرمين ؟

كذلك لا أفهم كيف يباح الزواج لمدمنى المخدرات بأنواعها ، وللمحكوم عليهم فى جرائم خلقيـة ، وخصوصا من يتخذونها مهنة لهم ، وللمعتادى الاجرام مطلقا ، فان أمثال هؤلاء لاينحدر منهم الا النسل الخبيث الردىء الذى يزيد فى عدد الأشقياء والبؤساء والتعساء والمجرمين .

وهناك أناس يرتكبون بالزواج أبلغ الآثام و يجلبون أشد الخطر على كيان الأسر : أولئك هم المصابون بالأمراض الوبيلة الخبيثة ، التى تنتقل إلى أولادهم وذرياتهم وأحفادهم وأسباطهم بطريق الوراثة ، وهم بعملهم هذا إنما يدسون فى أمتهم نسلا مريضا معيوها يسيء ولا ينفع ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا حين يتزوجون .

هذه أمثلة أضربها للناس ليتبينوا كيف تكون عاقبة الذين يخالفون روح الشريعة السمحة ، وكيف أن هــذه المخالفة تعد ثورة على الدين القويم دين القرآن رافع لواء المدنيــة والحضارة والعرفان والعمران .

ومن الناس من يتزوج طمعا فى المــال والنشب لا فى الحسب والنسب ، ومنهم من ينشد حاجة لا تمت إلى الزواج بسبب ، أولئك هم الذين يبتغون الوســيلة لبلوغ الأرب من جاه أو منصب . ومنهم من تتملكهم النزوات الجامحة أو النظرات الخاطفــة إلى جمــال صادق مطبوع أو زائف مصبوغ ، وهم طلاب الزواج الجسمانى ؛ كل أولئك خارجون على حكمة الزواج ، وهم من ذوى الاثرة والأنانية وحب الذات ، لا يرون فى الزواج إلا وسيلة لخدمة أنفسهم و إشباع أطماعهم لا خدمة المجتمع بتكوين الأسر الصــالحة التى ترفع قــدر الوطن وتعز شأنه . والزواج فى هذه الأحوال كلها لا حياة له ولا بقاء ، ولا يلبث طويلا حتى يكون مصدر شقاء وشقاق ثم ينتهى بالطلاق . وآية ذلك أنه إذا لم تحقق المطالب والرغائب حلت المصــائب والرغائب ، و إذا سكنت العاصفة ونال الزوج ما يشتهيه من جمال المرأة خبت نار الشهوة وانقطع ما بينهما من سبب ، وذلك لأن الأساس فاسد ولأن الزواج لم يصدر عن مودة وتعقل وتدبر ، بل عن نزوة فى الأعصاب وجموح فى النزعات ، فهو زواج أجسام لا زواج قلوب ، أو هو زواج نزوة طارئة تعصف به نزوة أخرى طارئة .

والأدهى من كل ذلك زواج الكهول والشيوخ بالفتيات الصغيرات ، وهو زواج خاسر فيه خروج على الفطرة والطبيعة ، لأن التكافؤ فى السن بين الزوجين لازم لدوام الزواج واستمراره ، ولأن ما يطلبه الرجل من المرأة تطلبه المرأة من الرجل . وقد ترضى الفتيات بهذا النوع من الزواج طوعا أو كرها مؤملات فى اقتراب أجل أزواجهن والحصول على أموالهم ، وفى فترة الانتظار — وقد تكون طويلة — تفسد أخلاق الزوجات إجابة لمقتضيات الطبيعه البشرية .

وقد يكون الزواج سليما لا غبار عليه من وجهة أساسه وأغراضه ، ثم يقع الشقاق فالطلاق لغير سبب جدى أو لمجرد شهوة فى النفس أو لغضب طارئ أو لهفوة بسيطة بدرت من أحد الزوجين أو لأمر من تافه لأمور لم تقترن به نية الانفصال ، وذلك ما يغلب حصوله فى الطبقة الدنيا . ومتى وقع الطلاق بدرت بوادر نتائجه السيئة ، فهنالك مؤخر الصداق والنفقة

والحضانة وغيرها وكل ذلك يؤدى إلى نزاع لا تحمد عواقبه ولهذا كان من الواجب على آل الزوجين أن يسارعوا إلى اصلاح ذات البين بينهما لا إلى إذكاء نار الخصومة كما هو حاصل الان .

وإذا كان الصلح واجبا فى المنازعات المدنية فهو أوجب فى المنازعات الشخصية لاتصالها المباشر بكيان الأسر بل هو فرض يحتمه الدين الحنيف :

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا " .

فقد تضمنت هذه الآية أمرا يفيد الوجوب ، على حد قول علماء الأصول ، ويجب العمل به حتما لأنه الصراط السوى نهجه لإصلاح ذات البين بين الأزواج، وتوثيق تلك الرابطة المقدسة التى يجمع الله بها بين شريكين يتقاسمان الحياة سراءها وضراءها حلوها ومرها. ويقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم " ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصوم ؟ " قالوا بلى يارسول الله قال : " إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هو الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " .

وإذا كان هذا واجب الأفراد فالأحرى أن يكون واجب الحكومة لما لها من سلطان الحكم ومن الولاية على مصالح الناس ، ولأنها مسئولة عن راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم ، بل هى راعيتهم وكل راع مسئول عن رعيته . والأمن العام يتأثر كثيرا بأمثال هذه المنازعات . ولقد تبينت ذلك بنفسى مدة السنوات الطويلة التى وليت فيها مديريات القطر ووكالة وزارة الداخلية . ومما لا شك فيه مطلقا أنها من العلل الرئيسة لاختلال الأمن واضطرابه فى ربوع البلاد ، ولهذا أهيب بالحكومة أن تعمل على تنظيم هذا الصلح بوسائل تشريعية تنفيذا لأمر الله تعالى وقياما بما يفرضه الواجب من نشر الطمأنينة وإحلال الوئام محل الخصام والوفاق محل الشقاق .

ولا يتسع المقام للكلام فى أمر الزواج لأكثر مما قدمت خشية التطويل فأعود إلى الأسرة وأعرب عن شديد الأسف لما شابها من تبدل وتغيير فى شؤونها الاجتماعية عند بعض الطبقات . فما كان يخطر ببالى مطلقا مهما بلغ الفساد فى البلاد أن يكون فى مصر ، كنف الاسلام وحصن الاسلام وركن الاسلام كما نقول وندعى ، طائفة من المسلمين والمسلمات يناصرون الشيطان ويناهضون القرآن ويخالفون شعائر دينهم ويخالفون شعار بلادهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوميتهم ويتخذون الرقص فى المحال العامة أو فى البيوت وسيلة للتلهى والتسلية فى حفلاتهم واجتماعاتهم وأعراسهم ، حيث يختلط الرجال بالنساء وقد تبرجن وتزين وكشفن عن مفاتن أجسامهن ، ثم يتخاصرون بعد أن يكونوا نسوا أنفسهم بما كرعوه من الخمر وهى أم الخبائث وهذا ما يسمونه بالمدنية الحديثة ، وما هو إلا زيف وتقليد لمظاهر كاذبة سافلة ، ومناظر

مستقبحة من مدنية الغربيين. وإنا لنقرأ فى بعض المجلات أوصافا لأعراس واحتفالات يقال فيها كانت الآنسة فلانة بنت فلان تراقص الشاب فلانا ثم ترينا صورا جريئة لبعض السيدات والآنسات نرى شرقية مسلمة تقدم الخمر إلى المدعوين والمدعوات أو تضع بيدها مزيج الكوكتيل من مختلف زجاجات الخمر وغير ذلك من المناظر التى لم تألفها أعيننا من قبل ولم تكن فى عاداتنا وتقاليدنا حتى عهد قريب. بئست والله هذه المدنية التى ستجرف فى تيارها مدنيتنا الاسلامية وقوميتنا الشرقية وترجع بنا إلى عهد الجاهلية الأولى بل ان الجاهلية الأولى لم تكن والله بأسوأ مما نحن فيه الآن .

ما كنت أتصور أن تكون فى مصر، زعيمة الاسلام، تلك الصالات التى انتشرت فى ربوع المدن الكبرى تبث الفساد وتنزع إليها العائلات وفيها الشبان والشابات والفتيان والفتيات يتملكهم الشيطان بالغواية والأغراء وما الشيطان غير أولئك المحرضين الفاسقين وأولئك الخليعات المتهتكات .

ما أعجب أمر نسائنا وفتياتنا ! ! لقد شغلن بالزينة والطلاء وبالغواية والاغراء عن كل ما فى الحياة من فضيلة ومن متعة ومن جمال ، وحسبن أنهن لا يشغفن الرجال حبا ، ولا يملكن ألبابهم إلا بعرض أجسامهن عليهم عرضا جريئا ، على حين أن التصون والضن بجمال الجسم أبعث على التشوق والتلهف عند الرجال . وأحب شىء إلى الإنسان ما منع .

لكن من ذا الذى ينزع هذا الوهم الخاطئ من نفوس نسائنا وبناتنا ؟ من ذا الذى يقول لهن : إنكن تبذلن جمالكن وأخلاقكن بما تتخذن على شواطئ البحار فى أشهر الصيف من مظهر خليع فاجر تتبارين وتتنافسن فيه ، حتى يرى الرجال المرأة أمامهم أمينة سهلة وبضاعة مزجاة ؟ ولم لا وأسراركن تتعاقب أمام العيون فى غير ستر يستركن ولا حياء توهمن به الرجال أنكن عزيزات المنال ؟ فالناظرون إليكن فريقان : أما أحدهما فنزق طيع لغريزته البهيمية وهو لا يملك التجلد إزاء هذا الاغراء ، بل يستعجل الجريمة استعجالا ، ويساير فتنتكن دون صبر ولا تعقل . وأما الآخر فتبصر متئد ، يرى فى إثارتكن للشهوات ما يسخطه على أخلاقكن ، ويسىء ظنه بعفافكن ، ويزهده فى لقائكن ، سواء أكان المراد باللقاء متعة الساعة أم عشرة العمر . ومن جازف فاتخذ منكن زوجة فلن يطول على هذا الزواج الأمد ، بل لا بد من فراق سريع . وآية ذلك أننا رأينا عددا من الشبان قد اتخذوا لهم زوجات ممن عرفوهن على شاطئ البحر ، وأعجبوا بهن إعجاب اللحظة ، فانتهت هذه العلاقات جميعا بالطلاق بعد أشهر أو بعد أيام .

وإذا كان أمر هؤلاء الغريرات عجيبا ، فأمر أزواجهن وآبائهن وأخواتهن أعجب . كيف يرضون لهن أن يختلطن بالرجال على الشاطئ أو فى جوف الماء؟ وكيف لا يغلى الدم

فى رءوسهم حين يرونهن غاديات رائحات، ضاحكات مازحات، متأبطات رجالا لا يمتون إليهن بصلة ، مستلقيات على الرمل حينا أو متمرغات عليه أحيانا ، داعيات الشبان إلى أنفسهن بلسان الحال و بالتثنيات أو الحركات والنظرات؟ أليس للفتيان بعد هذا شيء من العذر إذا أضربوا عن الزواج حذرا من أن يصابوا فى أعراضهم وكراماتهم بمثل هذا المصاب؟

سيقول بعضهم ممن لا يعجبهم هذا القول إنى من دعاة الرجعية و إنى أعود بالأمة القهقرى إلى عهود الهمجية البائدة. والله يعلم أن قولهم هذا مردود عليهم، فما أردت إلا أن أدفع بأمتنا إلى الأمام، إلى القوة والعظمة والمجد والسلطان، إلى المنعة والسعادة والهناء ورفعة الشأن، إلى المدنية الصحيحة مدنية الأديان ، أما هم فانهم يرجعون بأمتهم إلى عهد الجاهلية ويقلدون الغربيين فى أسوأ ما لديهم من خلال وصفات وعادات، والغربيون أنفسهم أصبحوا يستنكرون هذه التقاليد الهادمة للعفاف والشرف والكرامة، والعالمون منهم بمصائرها ونتائجها يعملون على التخلص منها بما يكتبون ونحن نبدأ من حيث هم ينتهون .

والقول الفصل فى ذلك لله خالق السموات والأرض فقد قال وهو أحكم الحاكمين :
" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " .

على أن هذا تقدير متواضع عما هو واقع فى بعض بيئاتنا الشرقية المسلمة ، وأخشى أن يتفاقم الخطب وتسوء العقبى ويتسع الخرق على الراقع إذا لم نمد العدة من الآن لوقف هذا التيار الجارف بوسائل حازمة حاسمة .ا

على جمال الدين